

من القصر الصحراوي إلى " المدينة الحديثة "

أ: خليفة عبد القادر

جامعة قاصدي مرباح- ورقلة

ملخص:

إن المرور من القصر أو المدينة التاريخية إلى المدينة " الحديثة " نتيجة للتحويلات التاريخية والاجتماعية يطرح العديد من التساؤلات والإشكاليات حول التغيرات التي يحدثها على أنماط الحياة الاجتماعية لسكان الصحراء المتميزين أصلا بنوعين من التركيبة الاجتماعية اقتصادية، القرويين الفلاحين القدامى ذوي التقاليد الحضرية، والمجموعات البدوية المتمدنة حديثا، وأيضا على الممارسات الحضرية الجديدة وأنماط الحضرية الجديدة في هذه المناطق المطبوعة بالخصوصية الصحراوية.

من خلال مقارنة أنثروبولوجية نوعية في مدينة تقرت عاصمة إقليم وادي ريغ في الجنوب الشرقي الجزائري. يمكن أن تكون بعد الدراسة المعمقة نموذجا للإجابة على إشكال هام: أي مدينة هي في طور الإنجاز في مدن الصحراء الجزائرية اليوم؟

كلمات مفتاحية:

الصحراء الجزائرية، التحويلات الاجتماعية، تمدن البدو، فلاحى النخيل، العمران الصحراوي، المجال، تقرت، وادي ريغ.

مقدمة:

الصحراء الجزائرية اليوم هي حضرية بالدرجة الأولى، إذ لم تعد الواحة كما كانت عليه منذ ماض قريب! حقيقتها العمرانية والاجتماعية تؤدي بنا إلى الوقوف على ساحة من التحولات الاجتماعية العميقة و المتسارعة. الواقع الإحصائي يثبت أن 80 بالمائة من سكان الصحراء باتوا "حضرين"، هذا الواقع لم يتكسر إلا في العشريات الأخيرة، من خلال ما عرفته مدن الجنوب الجزائري من ديناميكية عمرانية تفوقت حتى على مدن الشمال (COT: 1998. p89). وتحولات اجتماعية ونمو ديموغرافي لم تشهدها هذه المناطق طيلة آلاف من السنين من وجودها، وهذا بفضل عوامل "التحديث" بعد استرجاع السادة الوطنية، وأيضا نتيجة التحولات والتغيرات المجالية- الاجتماعية العميقة التي مست أساس البنيات الاجتماعية لمجتمعات الصحراء التي بدأت منذ الفترة الاستعمارية والمستمرة إلى اليوم.

إن الملاحظات الميدانية، والتحليل السوسيوي- أنثروبولوجي للمجال الاجتماعي في مدينة تڤرت¹ وهي أهم مدينة في إقليم وادي ريغ. يوفر نموذجا مكملا لمحاولة تفسير العلاقات الاجتماعية والمجالية الجديدة الناتجة عن تحولات البنية الاجتماعية والحركية الاجتماعية سواء للمجموعات الاجتماعية الواحاتية التقليدية أو للقبليّة المتمدنة في هذه المدينة. لمعرفة أكثر عمقا للواقع الاجتماعي في مدن الصحراء الجزائرية للإجابة على سؤال واسع الأفق، أي مدينة هي في طور الإنجاز اليوم في صحراء الجزائر؟

عمران الأمس: أصالة، تناغم بيئي وتدرج اجتماعي

للعمران في الصحراء جذورا تاريخية عميقة، مظاهر الحضارية والتمدن كانت مألوفة في القصور والمدن التاريخية منذ مئات السنين، ازدهرت المدن التاريخية كمحطات للقوافل التجارية التي كان مسرحها الفسيح بين ضفتي (بحر الصحراء) منذ 10 قرون (Cote ; 2005p05) بذلك امتلكت ذاكرة حضرية غنية وجذور أصيلة من خلال ما يعرف بالقصور الصحراوية، والتي بنيت في الأساس على توافق بين ثلاثة عناصر رئيسية هي: الطين(الأرض)، الماء(المياه الجوفية عموما)، المقدس(الضريح، الولي الصالح أو الزاوية). يتركز العمران عادة في كتل رئيسية تتفرع إلى مراكز صغيرة مشكلة شبكة محلية من القصور المرتبطة بعالم الفلاحة (النخيل) وآبار المياه أو الفقارات، تشرف عليها أكبر القصور التي تتطور إلى مدينة تاريخية مرتبطة بدورها بعالم تجارة القوافل والنظام السياسي القائم والإشراف الديني. بالإضافة إلى علاقة هذه القصور بعالم القبائل البدوية وأنصاف البدو الذي لعب دورا هاما في عمرانية و نشاطات هذه المدن والقصور من خلال التبادل الاقتصادي والتكامل الاجتماعي والحماية المتبادلة.

القصور على طول وادي ريغ، والذي يشمل حوضه معظم المنخفض الجنوبي الشرقي على مسافة 160كم بين الزيبان وورقلة، شكلت المجال السكني لفلاحي النخيل " بني ريغة " (ابن خلدون عبد الرحمان، 1921 ص96)، في هذه الواحات قرى بسيطة وكثيفة مبنية بالطوب النيئ معدة أساسا لسكن فلاحي النخيل " الحشاشنة ". تشرف عليها المدن التاريخية وأهمها مدينة تقرت(المدينة القديمة مستاورة) بحكم موقعها وظروفها عرفت تطور علاقات تجارية على المستوى المغاربي والإفريقي. شكلت مركز انطلاق قوافل ووصول أخرى في نظام موسمي وسنوي بالإضافة إلى الوظيفة السياسية، كمركز توافق بين القصور زمن (سيدي محمد بن يحي " رجال الملاح")، و" مملكة محلية " (بني جلاب²) ودينية كالزوايا (الزاوية التيجانية بتماسين، 10كم) بذلك تصبح تقرت التقليدية عاصمة جهوية تلعب دورا إقليميا هاما مشرفة على شبكة قصور وقرى وادي ريغ، تلقت أنظار الممالك

والقوى السياسية المجاورة، الحفصيين، والحكام العثمانيين في بايليك الشرق وغيرهم الذين أخذوا في بسط نفوذهم على مناطق الحضنة والزاب ووادي ريغ.

تقرت المدينة التاريخية (FERAUD, 1879. p) التي تنطبق عليها أوصاف المدينة العربية الإسلامية، تتكون أساساً من أنسجة عمرانية مهيكلة انطلاقاً من مجموعة من تجهيزات مركزية عامة تنطلق من المسجد الجامع المتصل بالسماء والمنفتح على ساحة السوق الرئيسية والمتاجر وأحوايت الصناعة التقليدية، لتتفرع للشوارع الرئيسية المغطاة والمنطلقة من المركز إلى أطراف المدينة تنتهي عند الأبواب الرئيسية (باب السلام، باب الخضرة، باب الغدر) تمثل هذه الفضاءات شريان الحياة الاجتماعية العامة بإتحادها مع الساحة العامة تشكل المجال العام PUBLIC مجال المرور والنشاط والالتقاء للسكان أو الوافدين على المدينة. أما القصر والذي يقع في الترتيب من حيث الأهمية العمرانية والوظائف في درجة أقل من المدينة التاريخية، القصور في وادي ريغ هي مكان سكني بالدرجة الأولى لفلاحي النخيل لم يبلغ تعقيد المدينة، تتركز وظائفه على العلاقة بواحة النخيل، هذه القصور الممتدة في شكل سبحة chaplet تتبع اتجاه انحدار وادي ريغ من بدايته (فوق، 20 كم جنوب تقرت) إلى نهايته عند الشطوط (مروان وملغيغ قرب المغير).

في مدينة تقرت بالخصوص يمكن التمييز بين نوعين من السكن التقليدي، السكن الذي وجد في النواة الأصلية مستاوة المدينة التاريخية، والذي بحكم وضع المدينة كمركز سياسي لحكم أسرة مشايخ بني جلاب ومركز تجاري أرتبط بحركة قوافل التجارة والعلاقات مع المحيط الجهوي البعيد و أيضاً القبائل البدوية، أما بقية القصور فقد ارتبطت أصلاً بثقافة زراعة النخيل وضمت السكان المحليين " الحشاشنة"، مما يجعلنا نميز بين نوعين من السكن التقليدي حتى وإن كان هذا التمييز غير عميق إذ تبقى السمات الأساسية والمحددة تبقى موحدة بالنسبة للنوعين وبين النوعين هناك قواسم مشتركة ومركبة بين الثقافة المحلية الفلاحية وتأثيرات المحيط الخارجي. السمة البارزة التي طبعت منطقة السكن في هذه المنازل قبل انهيار الحدود الثقافية بين المجتمعات في حدود القرن 19 (Hassan, 1985. p 64) نلاحظ أشكالاً و تفاصيل هندسية محلية كانت ثمرة التزاوج المتناغم بين مخيال هذا

المجتمع المحلي و الشروط البيئية المحلية، وثقافة المعيش والمخيل العربي الإسلامي.

من خلال مختلف الأوصاف التاريخية نلاحظ أن المدن والقصور المرتبطة معها تتميز بأنسجة بنائية خاصة تتميز بوجود العناصر التالية، المنازل، المساجد، الساحات، الشوارع، القلعة أو البرج، الأسواق، السكاكين، و ورشات الصناعة التقليدية. القرى و المدن في مجملها تموقعت على مناطق مرتفعة - Pítions - حسب ما تسمح به طبوغرافية المنطقة، تأخذ الشكل الدائري في معظمها، عند قراءة هيكلتها نحس أن أولوية مخططها كانت مسألة الدفاع، بسبب الصراعات المتكررة التي شذتها المنطقة في فترات التاريخ المتعاقبة. (FERAUD, 1879) (P66) الإثنية و أيضا المتعلقة بعملية الإنتاج الزراعي، في تلك الأثناء كان السكان يعرفون مزايا البناء في الأماكن المرتفعة.

المورد الأساسي لهذه القصور بالدرجة الأولى هو إنتاج التمور، إضافة إلى منتجات موسمية محلية، هذا الإنتاج الذي سمح للمنطقة بالتبادل التجاري مع مناطق أخرى في الشمال والجنوب، وسمح أيضا بتغطية الحاجيات الأساسية للسكان، كما سمح لبعض المجموعات والعائلات بالثراء، الوظيفة الأخرى والتي لا تقل أهمية في عالم الصحراء هي التجارة والتبادل الجهوي، أحيانا بعيد المدى يصل إلى أعماق الصحراء لربطها بالشمال وبالشرق وبالغرب. إن نظم الري والاستفادة من المياه القريبة من السطح في هذه المنطقة المنخفضة سمح بإيجاد الواحات، امتداد هذه الواحات وكبرها يتوقف على كمية الماء المتوفرة من المنابع والعيون وعلى مساحة الأرض الصالحة للزراعة أي القليلة "النز³" والملوحة، امتداد وسائل الري وتنظيمه وأيضا يتطلب الأمر إيجاد شبكة من القنوات لتصريف المياه الزائدة والتي قد تتسبب في قتل النخيل مثل الجفاف تماما، كل هذه التجهيزات والأعمال تطلبت مجهودات مضنية من الفلاحين.

إن تاريخ المدن الصحراوية على العموم يوضح لنا من خلال الفسيفساء البشرية والاجتماعية التي تتماثل مع تنوع ديني ومذهبي، إباضية، سنية مالكية،

زوايا. تأثرت المنطقة ولمدة طويلة بالإباضية الذين قدموا بمذهبهم بعد سقوط عاصمتهم تيهرت على يد الفاطميين أسوا مدينة جالوا بالقرب من بلدة عمر (20 كلم شمال تقرت) المذهب المالكي ينتشر في المنطقة على يد الدعاة من الذين قدموا إلى المنطقة في حدود القرن السادس عشر أمثال سيدي أحمد بن يحيى الإدريسي وغيره من المغاربة الذين نشروا المذهب المالكي بعد رحيل الإباضيين نحو سدراتة ووادي ميزاب. كثيرة هي العادات الشيعية بالمنطقة حسب الشيوخ الذين سألناهم حول هذه المسائل يمارسها السكان بعفوية والتي تعود حسب روايتهم إلى زمن الصراعات المذهبية التي شهدتها المنطقة.

مجتمع صحراوي، مهيكّل متنوع متكامل:

قامت علاقات تاريخية طويلة بين مجتمع فلاحي الواحات وقبائل البدو في الصحراء على أساس تكاملي يظهر في تقاسم العمل والمقايسة والمبادلات والحماية، علاقات دامت طويلا زمن ازدهار القوافل التجارية، يظهر في قوة من التماسك الاجتماعي الذي كان قائما بين البدو الرحل من التجار أو المحاربين أو الرعاة المرابين الذين يضمون المبادلات وحركة السلع وحماية القصور في إطار من التحالفات والولاءات، القصور وسكانها من الفلاحين ونخب المدن من الإقطاعيين والملاك الكبار الذين يجمعون الفائض من المبادلات التجارية عن طريق المساهمة في تجارة القوافل العابرة للصحراء لإنشاء المزيد من حقول النخيل والملكيات الواحاتية، التي هي أساس حياة التجمعات الحضرية في الصحراء، هذا النظام الذي وصفه: *Capot REY* في كتاباته حول الصحراء (REY, 1953, p 564)، أين كانت الوضعية تتميز بديمومتها التاريخية، بما يقرب من الألف سنة من هذا النظام الذي عزز التعاون الاقتصادي والتعايش الاجتماعي.

" الحشاشنة " المجموعة السكانية التي تشكل العدد الأكبر من سكان وادي ريغ، تسكن الأنسجة العمرانية القديمة تسمى ميزتهم لون البشرة السوداء. يذكرهم ابن خلدون في تاريخه (عبد الرحمان ابن خلدون، 1921، ص96)

«... وأما بنو ريغة فكانوا أحياء متعددة. ولما افترق أمر زناته... ونزل أيضا الكثير منهم ما بين قصور الزاب وواركلا، فاختطوا قرى كثيرة في عدوة واد... يشمل المصر الكبير والقرية المتوسطة... وكثر فيها العمران من ريغة هؤلاء، وبهم تعرف لهذا العهد، وهم أكثرها ومن بني سنجاس وبني بفرن وغيرهم من قبائل زناته...»
 فيرو Féraud تحدث أيضا عن هؤلاء السكان ، الذين يسكنون القصور المجاورة لتقرت التي قيم عدد سكانها آنذاك حوالي الخمسة آلاف من السكان، ويؤكد أن تقرت مثل وادي ريغ هو ملتقى بين "الزواج والبربر" نتيجة التهجين أخرجوا جيلا جديدا من المولدين Métisses ذوي ملامح البشيرة السوداء (Féraud, 1879. p 59-60)
 المختصين في فلاحه النخيل منذ قرون طويلة و نظام السقي أبناء الملاك الصغار من البربر أو أبناء العبيد القدامى الذين استقروا منذ تاريخ طويل (DUBOST, 1989, Tours, p 134.) كمجموعات اجتماعية ذات تقاليد حضرية قديمة واستقرار فلاحي امتد عبر تاريخ الواحات والقصور في الصحراء، أنتجوا وطوروا أنواعا من التمور والزراعات المحلية الصحراوية التي تتدثر تقنياتها اليوم.

البدو وأنصاف البدو⁴(semi-nomades)، مجموعات ارتبطت بالوسط الصحراوي أو هوامش الصحراء، عشريات من التمدن غيرت كثيرا من طرق وأنماط حياتهم، الفترات الطويلة من الجفاف التي أصابت مناطقهم في الصحراء أو على الهوامش الصحراوية شمال الصحراء التي ينتشرون فيها، وعوامل التحولات التي أدخلت على الواحات منذ بداية القرن العشرين، ساعدت في تسارع عملية تمدنهم، ضمن مدن الواحات (BISSON, 1989, p 5). في ظروف الصحراء الجديدة لم يكن البديل أمامهم من خيارات سوى التمدن أو التهميش، هذا التمدن الذي أحيى إشكالية التمييز بين نوعين من الحياة الريفية في الصحراء، البدو والسكان القرويين في الواحات، والعلاقات بين هذه المجموعات المتميزة اجتماعيا وثقافيا مع عالم سكان الواحات من فلاحي النخيل.

التحولات بين الإنقطاع والتواصل.

مع إقامة الدولة الوطنية كثمرة للإستقلال، يأخذ الاندماج في المجتمع الوطني العام عدة أشكال، إذ يشكل الجنوب وبخاصة الجنوب الشرقي أهمية إستراتيجية للحكومة المركزية بفضل آبار البترول والتي ترجع بداية استغلالها إلى سنة 1956 تم تأميمها سنة 1971 زاد في أهمية الثروة الاقتصادية الوطنية والمحلية التي تنتج عن استغلاله. في ظرف 20 سنة بعد استرجاع السيادة الوطنية، الصحراء تتحول كلها وبعمق، استغلال والتقيب عن النفط، وتأسيس إدارة جديدة. وذلك بالاستثمار والتجهيز على المستوى الوطني ويصبح التعمير واقعا غالبا وتتضاعف المصادر الاقتصادية مما يسمح بنمو شرائح اجتماعية جديدة جهوية ووطنية أيضا.

إن التنظيم والتقطيع الإداري، والتجهيز الاقتصادي هي مفاتيح سياسة الاندماج في المجتمع الوطني العام للصحراء، تدمج منطقة وادي ريغ ضمن ولاية ورقلة وجزء منها في ولاية الوادي. هذه اللحمة الجديدة للتنظيم الإقليمي حتى وإن لم تضع في الحسبان الوحدة البيئية والاجتماعية والتاريخية بتقسيمها بين عدة ولايات، ورقلة، بسكرة ثم الوادي هذا لتقسيم والتنظيم يسمح بإنشاء وخلق أنشطة جديدة للتجهيز والخدمات، مديريات إدارية مستشفيات مراكز صحية، مدارس ثانويات، شبكة بريد، بنوك... الخ. كانت لها آثار كبيرة على التشغيل، والسكن وتحسن مستوى المعيشة. إن استغلال النفط جاء بإقامة قاعدة كبيرة في حاسي مسعود تستقطب أبناء المنطقة وغيرهم من الشمال للعمل الدائم والمؤقت وتعطي ديناميكية جديدة للمجتمع، وللأشغال الكبرى القاعدية والطرق والمطارات تسهل الحركية داخل هذه الشبكة جهويا وربطها أيضا بالوطن وبالعالم. وتسمح للمنطقة والمدينة تقورت الخروج نهائيا من محليتها بلا رجعة وبهذه النشاطات تتغير الكثير من معطيات المجتمع الشكلية والنوعية.

تلتقي هذه التحولات الخارجية مع ديناميكية داخلية للمجتمع في المنطقة المتعدد الأصول والانتماءات وأشكال التنظيمات الاجتماعية ارتكزت هذه الديناميكية على منابع ومصادر ثقافية للمجتمع الصحراوي بالرغم من نزعة التوحيد المرتبط أساسا بالمنطق الاقتصادي وتوحيد طرق وأنماط الحياة وأشكال السكن، يبقى سكان المنطقة مطبوعين بخصوصياتهم التاريخية وهياكلهم الاجتماعية. بتأقلم السكان مع مقتضيات الاقتصاد العام الجديد و أقول الأشكال التقليدية للاقتصاد الصحراوي برزت أشكال من التأقلم الذكي بين منطقها الهوياتي ومنطق " الدولة " المتميز " بالعصرانية " أو التحديث.

إن الاندماج في سوق العمل في القطاع الصناعي وفي القطاع الخدماتي بالخصوص والتأقلم مع الشبكات الجديدة في الشكل الرسمي (formel) أو غير الرسمي (informel) والذي سيطرت عليه شبكات من التجارة والتهرب، امتهنته المجموعات البدوية القريبة من المدن أو الحديثة التمدن حول المدن الصحراوية عوض لها سالف عهدا بالقوافل والطرق التجارية، وتطور قطاع الصناعات الصغيرة (PMI) وبقاء النشاط الزراعي ولو محدودا، هذه الأنشطة والوظائف الجديدة تشهد على حركية داخلية حقيقية وهامة.

في ظرف أربعين سنة الماضية تضاعف المجتمع في هذه المدن تضاعف سكان مدينة نقرت كان جد مهم من سنة 1960 إلى 1998 يتضاعف عدد السكان ست مرات وفي الولاية ورقلة يتضاعف 15 مرة في نفس المدة إحصاء (السدويان الوطني للإحصاء 1998) الدافع الأول والهام لهذه الزيادات يرجع إلى الزيادة المفردة في المواليد من جهة، كباقي جهات الوطن وأيضا يعتمد على قوة جذب سكاني هام من مختلف مناطق الوطن بحثا عن التشغيل، كما لعب تمدن البدو دورا كبيرا في تضخيم هذه الزيادات الطبيعية وغير الطبيعية.

ساهم الرحل دوما في تجديد سكان الواحات والمدن الصحراوية، لكن هذه المرة وابتداء من الستينيات وكثيرة للاستقلال وتحديث الحياة كان هذا التمدن شامل ونهائي بنسبة كبيرة، على هامش المدن ثم داخلها والاندماج في النشاطات الجديدة والمصادر الجديدة للدخل (BISSON 1989.p 66.) حتى وإن أبقى

البدو على علاقات اجتماعية واقتصادية تربطهم بعالم الريف والبادوة، إذ بنهاية النشاطات التقليدية الرعي والنجع يجبر السكان على تغيير طرق حياتهم والانضمام تدريجيا إلى حياة المدينة ولاندماج في النشاطات الجديدة والمصادر الجديدة للدخل والاستفادة من الخدمات والتوزيع منذ سنوات الستينيات حتى نهاية السبعينيات، نسبة الرحل في مدن ولاية ورقلة مثلا تتخفف من 40% إلى 10% إذ يتمن ثلاثة أرباع الرحل في الولاية (الدليل الإحصائي لولاية ورقلة 2001). هذا التضاعف والتحول تم أيضا على مستوى المجال، وصل حده الأعلى إلى التهام تجمعات حضرية كانت في الزمن القريب متجاورة (قصور النزلة، الزاوية العابدية، تيسبست) لتصبح مدينة واحدة متلاصقة تؤلف نسيجا عمرانيا واحدا مدينة متعددة المجموعات والشرائح و" الهويات" التقليدية.

هذه الكيانات تتناسب مع انتماءات جهوية متعددة، نموذج متراكب له مظهرات اجتماعية متعددة ومتنوعة وأشكال من التنظيم الاجتماعي المتميز، لتأخذ صورة الجنوب الشرقي المطبوع بالمحروقات، بمركباته الأصيلة والجهوية والوطنية، بين البدو المتدنين حديثا، والسكان ذوى التقاليد الحضرية القديمة، المتأثر بالشبكات التجارية النشطة حوله، كسوف و وادي ميزاب. ظاهرة العمران والتعمير في طور الإنجاز دائما غير متساوية ولا متماثلة.

في أغلب الأحيان حاليا تأخذ المرفولوجية المجالية للمدينة الصحراوية شكل انضمام لعدة أنسجة تتماثل مع أربعة فترات تاريخية للعمران، القصر أو المدينة التقليدية التاريخية و التي تؤلف نواة المدينة، المدينة أو الإضافات الكولونيالية حول المدينة القديمة أو على جانبها، الأحياء العشوائية التي ميزت الفترة الأولى للاستقلال أو التي ضمت تثبيت البدو الرحل، أحياء التعمير الميرمج في إطار البرامج السكنية المختلفة من سكن فردي ذاتي وسكن جماعي.

إن مسار تدهور الأنسجة التقليدية في تسارعه يشير في نفس الوقت إلى نوع من المقاومة وإن كانت ضعيفة ودون وسائل مادية، حتمية توسع الأنسجة الجديدة وخصوصية الواقع المحلي الجديد وبشكل عام على مستوى الصحراء، أصبح

السكن التقليدي يمثل نسبة هامشية أكثر فأكثر مما يعكس تدهور القصور بقي هذا النوع يعادل (17.7%) في تقرت الكبرى من حظيرة السكن.

توضح وضعية المدينة التاريخية مستواة مستقبل الأنسجة التقليدية، فقد حطم جزء منه في العهد الاستعماري بما فيه قصر السلطان الذي وضعت في مكانه ثكنة عسكرية ومنذ ذلك الحين يشهد تدهورا مستمرا نتيجة خروج المدينة عن أسوارها وبداية التعمير بمنطق جديد. نتيجة تدهور سكانته وغياب الترميم قامت السلطة المحلية بعدة مشاريع إسكان لعائلاته لكن بمجرد خروج السكان يعوض هؤلاء بسكان جدد في الثمانينات وذلك تحت ضغط أزمة السكن موجات من الهجرة إلى المدينة من الضواحي والبدو الرحل وأيضا النمو الديمغرافي الكبير، وانتهت بتدهوره النهائي وتحطيم عدة أجزاء منه بقرار من السلطات المحلية بعد أن وحد معظم السكان للاستفادة من سكنات اجتماعية أو في إطار السكن الريفي أو السكن التطوري.

القصور أيضا تشهد تدهورا كبيرا وتحولا عميقا نلاحظ أن معظم السكان استفادوا من سكنات جديدة في أحياء مختلفة، والعائلات التي استفادت من السكن لم تتحول في مجملها بل احتفظت بسكناتها القديمة والتي بقي فيها جزء من الأسرة أو قامت بكرائها في طور التمدن أو القادمين الجدد من التل أو من الأوراس أو من أحواز المدينة، وأصبحت مقاطعات حقيقية للفقير، كثافة هذه القصور كانت مسئولة عن جزء كبير في هذه التدهور وإضعاف مساكنها.

وضعت تخصيصات لأراضي جديدة، زاحمت الصحراء، والشطوط، وتوسعت في كل اتجاه حولت العمران في الصحراء من منطقته التقليدي الممرز إلى عمران خطي يتبع طرق المواصلات والتجارة. التطور العمراني هذا فرض على السكان إستراتيجيات سكنية جديدة شجعت السياسة العمومية وساهم في بناء هويات اجتماعية جديدة⁵، المدينة اليوم تتوفر على أحيائها السكنية الراقية الفيلات المنجزة بهندسة مختلفة كان الهاجس الكبير في إنجازها هو إبراز الثروة وتتطور المضاربة العقارية التي تؤدي إلى ظهور أحياء متميزة اجتماعيا وعمراني.

مساكن عائلية في معظمها أنجزت بتكاتف جهود الأسرة من توفير وادخار ومساهمة الأبناء الكبار وأيضاً في كثير من الأحيان بيع مجوهرات الزوجة، وعمل الأبناء، المسكن القديم يتم كرائه أو استعماله في وظائف تجارية ليساهم مدخوله في توسيع المنزل الجديد وإتمام بناؤه هذه الأشكال من الممارسات هي العنصر الغالب الآن في التمثيل العمراني الجديد.

من العائلة إلى الأسرة، دلالات أشكال التعايش الاجتماعي.

لمحاولة فهم الهياكل الأسرية وأنواع التعبئة في المجال في مدن الواحات المتميز بتجاور مجموعات اجتماعية تركيبها من السكان القرويين إلى البدو المتمدين ألى الوافدين من الشمال أحياء تعبر عن نماذج اجتماعية متميزة، كواقع اجتماعي يخلق أوساط اجتماعية موزعة على أحياء المدينة.

انطلاقاً من المعطيات النوعية و الإحصائية بالنسبة للأسرة، سواء بالنسبة لمجتمع الفلاحين القدامى أو البدو المتمدين في المدينة، وإعادة التركيب أظهرت أنواعاً جديدة من التعايش داخل المجال السكني ساهمت في رسم ملامحه أزمة السكن بدرجة كبيرة التي أصبحت تمس المنطقة كغيرها من مناطق الوطن، مما يجبرنا في الأخير على التساؤل عن حقيقة التركيبات الأسرية المتعددة. هل هي أنواع من التعاضد الأسري كتسيير لأزمة السكن أم هي اختيارات في هيكل الأسرة تقود إلى رسم ملامح تركيبية أسرية جديدة في مدن الصحراء اليوم؟

الأوساط الاجتماعية المشكلة للمجال السكني والإقاماتي الواقع الاجتماعي يثبت أنها مجموعات اجتماعية بين التمايز والذوبان فيما بينها، بين الحشاشنة ذوي البشرة السوداء سكان الواحة الحضريين القدامى الذين عدد كبير من مجموع السكان في هذه المدن ، والبدو المتمدين ، في إطار مدينية جديدة في مدن الصحراء اليوم ضمن مجال عمراني ذو منطقتي عمرايين غير واضح المرامي، أصبح يتطور ضمن منطقتي متعدد يتبعه التقاطع بين المنطق الاجتماعي الهوياتي الذي يتخذ من الهيكلية

الاجتماعية والأسرية الجديدة التي أعيد تشكيلها وصيغتها تجاوبا مع التحولات في إطار مجتمع وطني غالب دون فقدان الهيكلية الاجتماعية التقليدية والأصيلة المعبرة عن الهوية الاجتماعية، إن مؤسسة الزواج هي المعبر الرئيسي عن هذه الاستراتيجيات الاجتماعية والتشكلات الجديدة ، في مواجهة منطق مؤسساتي رسمي المطبوع بالنظرة " العصرية " التي لا تتكيف معها المجموعات الاجتماعية أو الأسر دون إعادة صياغتها على منوال التصورات والتمثلات الاجتماعية.

-خلاصة-

الخريطة العمرانية التي تتشكل في مدن الواحات التي هي مشروع عمراني مفتوح في طور الإنجاز، هي في الحقيقة الهيكل الذي يضم خريطة اجتماعية على شكله ومقاسه، السكان ليسوا مجرد أرقام في جداول يسكنون ، يتعلمون، يستهلكون، بل هم فاعلون نشطون من خلال ممارساتهم واستراتيجياتهم واحتلالهم للمجال هم يرسمون المدينة و يخططون لها ويقيمون التقسيمات والعلاقات بينهم وبينون مساكنهم على صورة هوياتهم الاجتماعية والأسرية ويعيشون المدينة بتمثلاتهم، إن المعرفة الجيدة لهذا الواقع العمراني والاجتماعي في هذه المدن هو الذي سوف تحديد نوع المدينة المراد إنشاؤها في الجنوب. حاضر ومستقبل الواحة في طور التشكل ملامحه النهائية لم ترتم بعد، الحتمي هو ضرورة استعجال البحث المعمق بأدوات مناسبة لفهم هذه التحولات للإجابة على إشكالات ومعضلات تخص التنمية. إن التحولات المجالية والاجتماعية التي تشهدا مدن الواحات هي تحولات عميقة، غيرت في فترة وجيزة نسبيا نسقا دام قرونا طويلة الممارسات المهنية الجديدة أعادت تصنيف المجموعات والنخب في هذه المنطقة، الحشاشنة تحولوا من فلاحين إلى وظائف وأنشطة جديدة سمحت بها ظروف الاندماج في المجتمع الوطني العام، أما البدو المتمدين فقد كانت مراحل تمدنهم هي محطات اكتساب وظائف جديدة، هذه الوظائف والأنشطة ساهمت أيضا في التوزيع المجالي الجديد، المجموعات مستفيدة من الوضع التقليدي والتضامانات الاجتماعية والأسرية وتركيبها في شبكة فاعلة مع الوضع المادي للتمركز في المجال وتملكه بطريقة ليست محايدة هي الأخرى، إنها تعبير واضح ومتعمد عن الهويات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة في مدينة في طور الإنجاز لمجتمع في طور إعادة التشكل.

الهوامش:

¹ تقرت: مقر دائرة، تمثل عاصمة إقليم وادي ريغ، 140000 ساكن، 640 كم جنوب شرق العاصمة الجزائر، من أهم مدن الصحراء الجزائرية ماضيا وحاضرا.

² بني جلاب: أسرة مرينية أصلها من فاس حكمت وادي ريغ منذ القرن السادس عشر حتى الاحتلال الفرنسي في 1854. اتخذت من تقرت عاصمة لحكمها.

³ النز: في لغة أهل المنطقة هو صعود الماء الجوفي، نتيجة سوء تصريف المياه الزائدة عن حاجة الري.

⁴ أنصاف البدو نقصد بهم المجموعات التي تمارس الرعي وتربية الماشية إلى جانب زراعة النخيل غير المسقية في الأحواض المنخفضة وتعيش شبه استقرار أو التنقل في مساحات جغرافية محدودة.

قائمة المراجع:

- 1- ابن خلدون عبد الرحمان «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر» الطبعة الثانية، بيروت 1921
- 2- الدليل الإحصائي لولاية ورقلة 2001
- 3- Capot REY « *le Sahara Français* » PUF; 1953; Paris.
- 4- Daniel DUBOST : *la ville ; les paysans et le développement agricole au Sahara Algérien*, in *Le nomade, L'oasis et la ville* Fascicule de recherche n°20 URBAMA, 1989, Tours
- 5- FATHY Hassan, «*Construire avec le peuple, histoire d'un village d'Egypte, Gorna*» 4 éd. Paris 1985.
- 6- Féraud (L.Ch) « *Notes historiques sur la province de Constantine - les Ben – Djellab, sultans de Touggourt* » in *Revue africaine* N° 23 1879.
- 7- Jean BISSON : « *le chaanbi et le Hammam : Zelfana, boîte noire de l'aménagement au Sahara Algérien* », in *le nomade L'oasis et la ville*, Fascicule de Recherche, n °20 URBAMA, 1989.
- 8- Jean BISSON « *le nomade, L'oasis et la ville* » URBAMA, n °20, 1989
- 9- Léon Charles FERAUD « *les Ben – Djellab, sultans de Touggourt* » ; Notes historiques sur la province de Constantine ; in *Revue africaine* N° 23. 1879.
- 10- Marc COT: « *Dynamique urbaine au Sahara* » ; in *Insaniyat* (Revue algérienne d'anthropologie et sciences sociales) n°05. Mai-Août 1998.
- 11- Marc Cote *La ville et le désert ; le Bas-Sahara algérien* IREMAM KARTHALA Paris 2005 .